Türkiye Diyanet Vakfı
Kütüphanesi
Bedi Apaydınoğlu Koleksiyonu

أمين الريحاني

قلب العراق

رحلات وتاريخ

دار الجيل
بيروت

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الرابعة
١٩٨٨

المقدّمة

لمعالي الدكتور الشاعر العلامة
الشيخ محمد رضا الشبيبي

وضع فقيد الأدب والفلسفة الكاتب العربي الاستاذ أمين الريحاني — بعد عودته الى الشرق من دار هجرته في الولايات المتحدة الامريكية وقيامه برحلات عدّة في الممالك الشرقيّة — جملة كتب ، من أشهرها وأمتعها كتابه « قلب العراق » ، وهذا الكتاب يتناول دراسة لاوجه النهضة العراقيّة في العقد الثالث من القرن العشرين ويتضمّن آراء خاصّة للمؤلف في جملة من القضايا التي عني بها العرب والعراقيون إذ ذاك ، فهو كتاب تاريخ وأدب وسياسة .

وضع الريحاني كتابه المذكور بعد زيارته الاولى للعراق عام ١٩٢٢ حيث تسنّى له ان يتصل بأشهر رجال السياسة والادب والثقافة اذ ذاك ، زار امين الريحاني هذه البلاد بعد الثورة الكبرى التي أسفرت عن اعتراف الانكليز المحتلين بحقوق العراقيين في السيادة والاستقلال ، وقد استقبل استقبالاً شائقاً لان ابناء العراق وجدوا فيه كاتباً عربياً ثائراً على كل شيء ثائراً على المجتمع الذي نشأ فيه ثائراً على الغرب الذي هاجر إليه وعلى الشرق الذي هاجر منه ، وللريحاني في قلب العراق آراؤه التي استوحاها قبل اكثر من ثلاثين سنة فاستحسن أشياء واستهجن اشياء ولكن الاحوال تبدّلت بعد ذلك والآية انعكست فلم تحافظ بعض تلك الشؤون الحسنة على حسناتها ، وللسياسة المرسومة في العراق تأثيرها في هذه الناحية ، وله ايضاً تجاربه واختباراته في حضارات الغرب

وفي روح المدنية الغربية إلى مقارنات دقيقة بين روح هذه الحضارة وتلك في الشرق والغرب ، فلكل حضارة ولكل مدنية بـــل لكل حاضرة كبرى روح ، ويصوّر المؤلف روح بغـــداد بقوله : « هي الحوقلة والاستسلام ، وهي الشغب والتمرّد ، وهي الورع والتقوى ، وهي في هـذا الزمان النفط ، وقـــد يصير النفط في المستقبل روحها الكيماوية العظمى روحها المركبة في بوتقة هذا الزمان البرّاق » ، هذا مـــا قاله الريحاني عن روح بغداد. كأنه يعني حاضر بغداد هذا اليوم حيث أصبح النفط روح العراق بل روح الأقطار العربية وغيرها من الأقطار المجاورة للعراق لا روح بغداد فقط. فما ألطف نظر الريحاني وما أصدق فراسته؟. فلما قال الريحاني ما قاله هنا لم يكن نفط كركوك ونفط البصرة ونفط الكويت ونفط الصحراء العربية قيد الاستثمار ، وقد نفذ بفكره الثاقب إلى سوء أثر الاستعمار الغربي في العراق ، وتراءى للريحاني – كما يقول في الكتاب – كيف يتهافت الشرقيون على مساوىء الحضارة الغربيـة ومظاهرها الحدّاعة أو الحضارة الغربيّة الشرقيّة المليئـــة بالمتناقضات، وللريحاني رأيه في الحضارة الفرنجيّة الحديثـة وفي الاستعمار الغربي فهما يرتكزان – فيما يرى – على دعائم من العدوان والجشع المادّي والاثرة ولا يلدان – اعني الحضارة المادية والاستعمار الغربي – إلا الجهل والفساد والرذيلة. حضارة ذات جهاز ناقص ونظام مختل نائية عن الفضائل منغمسة في حمأة الرذائل تحجرت قلوب أهلها فـلا تنبض بالحيـــاة ولا أثر في نفوسهم للمروءة ، وكما رأيناه منددا بالتقليد والتفرنج رأيناه أيضاً يندّد بالنعرات العنصريّة والطائفيّة محذراً من نتائجهـــا الوخيمة واضرارها الجسيمة ومـــا يترتب عليهـا من إثارة الضغائن والاحقاد والحروب . والخلاصة كان فيه ميل ظاهر إلى الثورة والخروج على العرف والمصطلح ومع ذلك كان يتجه في فلسفته إلى تغليب الروح على المادّة ويندّد أيضاً

بالحاد المقلدين المتفرنجين . وهو يعنى كثيراً بشؤون الطبقـات الفقيرة ويعرض صوراً من تعاستها وحرمانها ويدعو إلى الانصاف في معاملتها. كما يدعو إلى التحرّر من الخرافات ولكنه مع ذلك يؤمن بالحقائق الروحية ويكفر بالشهوات الغريزية ويلاحظ أنـــه ميال إلى التطرّف والافراط ولذلك ناوأه من ناوأه من الزعماء والادباء وحملة الاقلام .

كال الريحاني تهماً كثيرة للأديان ونسب إليها ما نسب من المساوىء. تارة بدون تحفظ وطوراً مع شيء من الاحتياط ، وقـد جاراه في ذلك جماعة من الكتاب والمؤلفين والادباء ، وقـد قلنا لهم اكثر من مرّة إن التوفيق جانب هؤلاء المسرفين الذين غلوا في سوء الظن وانهم ارتكبوا خطأ لا يغتفر ، وقد فكرت كثيراً في العلة التي من اجلها اساءت هذه الطبقة من الادباء والكتاب المحدثين او المعاصرين ظنها بالدين واهله فعلمت ان مردّ ذلك إلى ما سموه « تعصباً » ، وزعم بعضهم ان تلك العلة في الجمود وقال آخرون : إن الدين محدود الغاية وان نظر رجـــال الدين كذلك، والواقع ان الاسلام في جوهره بريء من تلك التهم، ويتراءى لي ان الريحاني تعمق في درس تاريخ اوروبة واطلع على ما ادّت إليه الخصومات والفتن بين الطوائف وما جرّه ذلك على الغربيين من المصائب فأعلن – اي الريحاني – ثورته على التعصب تارة وعلى الدين مرّة اخرى وجاء كلامه عاماً في جملة من المواضع .

هـــذه اولى زيارات الريحاني للعراق وقد شفعها بعد عشر سنوات بزيارة ثانية ، وفي هذه الزيارة الثانية وصف رائع للطريق التي سلكها بين بيروت وبغداد ويدخل في ذلك وصف البادیتين بادية العراق وبادية الشام ووصف ما جدّ وانشأ في بغداد خلال هذه العشر سنوات وبدأ بالفنادق الجديدة التي اختيرت لهـــا اسماء إنكليزية مضلّلة ، وفي هـذه

الفصول من « قلب العراق» نبذة تاريخية عن معالم بغداد و كيف تغيرت من طرق وشوارع وابنية وعمارات خلال تلك المدّة ، ويتخلّل ذلك ملاحظات ومقارنات عمرانية او اجتماعية لطيفة وإشارة إلى بعض مظاهر التجديد والتطوّر واصطناع رسائل الحضارة الآلية في بغداد ، وللمؤلف على كل حال نظراته البعيدة فهو القائل بعد ان طاف سجن بغداد مع اثنين من اعضاء المجلس النيابي « سجنكم يستبشر به اكثر من برلمانكم » هذا ما قاله الريحاني لرفيقيه وإن كل ما حدث بعد ذلك التاريخ في الانتخابات النيابية يشهد للريحاني بإصابة المرمى ولو عاش إلى هذا اليوم لقال اكثر من ذلك في هذه المجالس وفي الانتخابات المزيّفة لا في العراق فقط بل في غير قطر من اقطار الشرق العربي .

عرض الريحاني في قلب العراق صوراً بشعة عن حياة الطبقة الفقيرة ومساكنها في بغداد وكان دليله هناك مستشار الأوقاف وكان هذا المستشار بريطانياً ، وإذا اتخذ الزائر من الغراب مرشداً ودليلاً فانت تعرف على أي شيء يدل الزائرين .

إذا كان الغراب دليل قوم يدلّهم على دار الخراب

والظاهر ان المستشار صحب الريحاني إلى بعض الخانات القديمة القذرة فأراه هناك صوراً بشعة لبعض باعة الأغذية وغيرها وهي صور قد يلحق العراق والعراقيين منها سمعة لا يغبطون عليها بل يتخذ منها الغربيون الطغاة وسيلة للتجني على الشرق . فما أغنى المؤلف عن عرض تلك الصور وهناك الفاظ سباب وتهاتر بين سكان تلك الاحياء أو بين عابري السبيل في بغداد لا تصح الاشارة إليها قط .

زار بعض العمارات القديمة ووصف فن الريازة والهندسة والزخارف فيها وفنون التنجيد والتزيين والتطعيم وصناعة الحفر على الخشب وصناعة

الزجاج الملوّن والنقش والمشربيّات المطلّة على الشوارع والحارات، وكانت هذه الفنون الجميلة ماثلة في بغداد القديمة وفي بعض المنازل والبيوت ، وما أبرع الريحاني في وصفه الذي يباري فيه اكثر الشعراء إبداعاً فإنه إذا وصف جماداً مثله لك حياً نامياً وإذا اعجب بشيء ابدع في نعته كما يبدع العبقري الفنان .

كان الشعب العراقي قبيل تلك الفترة التي زار فيها العراق من الشعوب الفتية الرازحة تحت اعباء ثقيلة من احتلال المحتلين الغالبين ، وقد تملّكت هذا الشعب رغبة صادقة في التحرّر والانعتاق والتخلص من استرقاق المستعمرين . كان الشعب يستجيب لكل دعوة في ايقاظه وحفزه واستثارته لانقاذ بلاده من براثن الغالبين . فكان لكتب الريحاني واحاديث الريحاني وقع لا يستهان به في نفوس أدباء العراق إذ ذاك . لأن كتبه حافلة بالآراء والأفكار الثورية كما رأيت ، أضف إلى ما تقدم انه من الكتاب والمؤلفين الذين وقفوا ذكاءهم وأقلامهم ومواهبهم على نصرة العرب وسلخوا اعمارهم في الكتابة والخطابة والرحلة دفاعاً عن قضيّتهم وهي قضيّة حقة قامت على أساس احترام مبادىء العدل والحرية والمساواة ، ويلاحظ ان الثقافة الغربية لم تؤثر في نزعة بعض السوريين واللبنانيين المتأمركين المهاجرين إلى الغرب بقدر ما أثّرت فيهم الثقافة الاسلامية التي درسوها قبل الرحيل فتطوع شعراؤهم للدفاع عن العرب والاسلام في بلاد لا تدين بالدين الحنيف . لا نحدو اولئك الادباء والشعراء رغبة أو منفعة خاصة ولا تثنيهم رهبة ، وكان الريحاني منهم في الطليعة بل هو مؤسس ادب المهجر والمهاجرين .

ادب المهجر

هو ادب تضاربت فيه الآراء فمن متعصّب له إلى متعصب عليه ومن

زاعم انه وحده ادب التجدد والتطور في العربية إلى قائل إنه ادب دخيل تعوزه الاصالة، وبين هذا وذاك رأي وسط وهو ان ادب المهجر — على الاجمال — ادب رقيق طريف خفيف الظـــل في كثير من الاحيان. نصيبه من العناية بالمعنى الحديث اكثر من نصيبه من العناية بالمبنى، وقد ذهب بعضهم إلى ان ادب المهجر الذي وضع امين الريحاني قواعده ادب ثائر متمرد على التقليد والمقلدين او المحافظين وانه ادب النهضة الفكرية التي سايرت النهضات العالمية، وقد بالغوا في هذه الناحية، ومردّ ذلك — فيما نرى — إلى البيئـة الحرة الطليقة التي عاش فيهـــا الادباء والكتاب المهاجرون بنجوة عن الاستبداد والطغيان. أجل مردّ ذلك إلى تأثر القوم بالبيئة وبثقافة قامت على اساس حب التحرر والعمل والاجتهاد فاستلهموا منظومهم ومنثورهم من الواقـع وعنوا بالمعنى والفكرة قبـــل العناية بالالفاظ، والواقع — فيما نرى — ان الادب الاصيـل هو الفن الذي لا يقتصر على العناية بالمعنى تاركاً ناحية القوالب والمبنى. فالالفاظ واساليب التعبير يجب ان تنال حظاً من العناية لا يقل عن حظ المعاني، وهذه هي حقيقة الادب الحي عندنا معاشر العرب، وقد حاول بعضهم ان يميز ادب المهجر بخصائص معينة منها ما يعود إلى الالفاظ ومنها ما يعود إلى المعاني فلم يجيء بشيء، والحقيقة ان خصائص الادب الحـــق في المهجر هي خصائص الادب الحق في جميع العصور، وبالخاصة عصورنا الحديثة، ان الشعراء والادباء المغتربين فطروا على الادب ووهبوا تلك الموهبة، ولو انهم لم يغـتربوا وتمكنوا من العيش احراراً في بـلادهم لنظموا ونـثروا وجوّدوا في نظمهم ونثرهم كما لو عاشوا في تلك الديار النائية، والخلاصة كانت الحريات الفكرية محترمة في البيئة التي انتقلوا إليها بعكس البيئة التي انتقلوا منها ولكن مهما تضاربت الآراء بشأن ادب العرب المهاجرين فانها اجمعت على ان اميناً الريحاني مؤسس ذلك الادب وان فلسفته لم تكن

فلسفة مادية، وقد يبدو لمن تصفح كتبه — وخصوصاً هذا الكتاب — انه كثير التنديد بالاتجاهات المادية وبطغيان العجمة والنزعات الاجنبية، ومن ذلك نراه يحث على التمسك بالسجايا العربية ويدعو إلى مقاومة عوامل الانحلال والفناء، وقد نقل إلى الانكليزية ما نقل من روائع الادب العربي الحافلة بالمعاني الانسانية فكان لها اثر لا يستهان به في البيئة الامريكية. من ذلك مثلاً لزوميات أبي العلاء المعري وقد أربى عدد مؤلفاته باللغة الانكليزية على العشرة، والواقع ان العهد الذي وجد فيه الريحاني وآخرون من طبقته وبعض تلامذته من الادباء القدامى في المهاجر الامريكية كان عهد ازدهار الادب واللغة العربية هناك ثم انكمشت بعد طبقتهم حياة الادب وتضاءلت العناية به في تلك الديار إذ انفرد الريحاني بانه كتب معظم كتبه المشهورة بعد عودته إلى وطنه وقلما كتب شيئاً منها في ديار الغربة، وقـــد عاصره ادباء لبنانيون مثله وحذا حذوه آخرون وجاروه في آرائهم وفلسفتهم ودعوتهم إلى الاصلاح فكتبوا وخطبوا وألفوا غـــير ان النجاح خانهم غالباً في اصـــلاح وطنهم وكان التشتت والتفرق عاملاً قوياً في ذلك الاخفاق فلم تجمع القوم جامعة ولا ضمت شملهم قيادة منظمة أو قوة فعاشوا ضعفاء. وها هو التعصب الذي شنوا حرب الاقلام عليه يستشري اكثر مما كان، وهذا لبنان برج بابل وهو مطمع لكل طامع من الغربيين. وقد استولى اليأس من روح العدالة على كثير من ابناء البلاد المذكورة. فها هي المهاجرة والمتاجرة وجمع المال قبلة ابن لبنان.

بقيت آراء هذه الطبقة من الادباء والكتاب اللبنانيين منثورة كما ينثر الحبر على صفحات الاوراق. افكار جميلة ونظرات صائبة ولكن العبرة بالعمل والتطبيق.